الفكاهة في شعر العقاد

ليس في عنوان هذا المقال خطأ من أي نوع ، فقد كان العقاد شاعراً ما في ذلك شك ، وإن أنكر ذلك كثيرون ، وكان العقاد فكهاً مرحاً ما في ذلك شك ، وإن جهل ذلك الكثيرون ، والذين عاصروا ندوة العقاد سجلوا ، ورووا في مجالسهم الكثير من " قفشات " الأستاذ - كما كان يلقب بحق - التي تنم عن خفة ظل مطبوعة ودعابة مركوزة في هذه النفس العظيمة التي كانت تتخفى دائماً وراء قناع من الهيبة والوقار.

والذي يتابع روح الفكاهة في دواوين العقاد يجد كثيراً مما يؤيد ما نذهب إليه من غلبة روح الفكاهة على نفسية العقاد كما تبدو في شعره .

ولم يكد ديوان من دواوين العقاد يخلو من قسم مخصص لأشعاره الفكاهية وعلى سبيل المثال ففي ديوانه الأول (هدية الكروان) نجد قصيدة فريدة في بابها عنوانها (البيلا) وهي منظومة في طفل صغير تعبت معدته فوصف له الطبيب مقداراً قليلاً جداً من الجعَّة (البيرة) يشربه بين حين وآخر ، فألف الطفل الجعَّة واستطابها وأصبح يؤثرها على الحلوى والفاكهة . وفي هذه القصيدة يتحدث العقاد على لسان الطفل الذي لا يكاد يحسن نطق كلمة (البيرة) فينطقها (البيلا) ويقول ما أحلى شرب البيلا ! ويكتبها العقاد على لسان الطفل (ما أحلى سُلْب البيلا) ومن هذه القصيدة :

البـــــيلا ، البـــــيلا ، البـــــيلا البـيلا مـا أحـلى " سُـلْب البـيلا "
هـــــاتوا البـــــيلا واســـــقوني هـــــاتوا البـــــيلا داووني
الطـــب " ودينـــي " يوصـــيني بـــالبيلا ، تحيـــا البـــيلا
البـــــيلا ، البـــــيلا ، البـــــيلا مـــا أحـــلى البـــت البـــيلا
مـــالي ومـــا الشـــكولاتا تمشيـــــلي تاتـــــا تاتـــــا
بطـــــلٌ مـــــثلي هيهاتـــــا بـــــالحلوى ينســـــى البـــــيلا
البـــــيلا ، البـــــيلا ،البـــــيلا أبـــــدًا لا أنســـــى البـــــيلا

وفي ديوانه الثاني (أعاصير مغرب) تتراجع الفكاهة المباشرة لتطل برأسها في ثنايا قصائد أو مقطوعات جادة الفكرة ولكنها لا تخلو من مفارقة كما في قوله

مـــن جانـــب القـــبر لســـانٌ بـــدا يكـــذب مـــا شـــاء ولا يستحـــي
هـــذا هـــو التـــاريخ لـــو أننـــي صـــورته يومـــاً عـــلى المسرـــح

ويضم هذا الديوان قصيدة العقاد الخالدة في رثاء كلبة الوفي " بيجو " الذي قدم لها بمقالة ضافية نشرها في مجلة الرسالة في ١٩٣٨/١٠/٣م عدد فيها مزايا كلبة الفقيد وخصاله وحلل نفسيته أيما تحليل وأتبعاها بقصيدته في رثاء الكلب والتي مطلعها :

حزناً على بيجو تفيض الدموع حزناً على بيجو تثور الضلوع

وفي ديوانه الثالث (بعد الأعاصير) نجد قسماً خاصاً بشعره الفكاهي نقتطف منه تلك الأبيات التي بعث بها إلى الوزير الأديب إبراهيم دسوقي أباظة

الذي كان قد دعاه عدة مرات إلى ندوته التي كان يحضرها الكثيرون من أدباء مصر في الأربعينيات ، وكانت تنتهي دائماً بوجبة من "العدس الأباظي " الشهير ، وحدث أن اعتذر العقاد مرة بعد مرة عن تلبية الدعوة حتى إذا استشعر الحرج من كثرة الاعتذارات أناب عنه صديقه الشاعر العوضي الوكيل وبعث إلى ابراهيم دسوقي باشا يقول :

يـــا مطعـــم الأدبـــاء مـــن ... خـــير الـــذبائح والبقـــول
مـــا طـــاب مـــن ضـــأن ومـــن ... طـــير ، ومـــن عـــدس وفـــول
" عـــوضي الوكيـــل " إذا دعـــوا ... ثـــم دعـــوةً عـــوضي الوكيـــل
عـــوضٌ إذا مـــا شـــئتمُ ... عنـــي وأكَّـــال أكيـــل
بـــين الموكـــل والمؤكـــ ... ـــل ، فـــاز بـــالغنم الأصيـــل

ويسخر العقاد من الجاهل الذي يطرق ساكتاً فيخشى الجالسون بأسه ويظنونه على شيء من العلم ، ويدلل العقاد على أن الإطراق والسكوت لا علاقة له بالفكر ، فالحمار أخشع ما يكون حين يأكل الشعير مطرقاً :

لا تغرَنّـــك منـــه إطراقـــة الـــرأ ... س فليســـت برأســـه أفكـــار
أشـــبه الخلـــق بـــالمفكر إطـــرا ... قـــاً ، لـــدنْ يأكـــل الشـــعيرَ ، حمـــار
رأســـه مطـــرقٌ وفيـــه خشـــوع ... وهـــو للجهـــل رمـــزه المســـتعار

وفي ديوانه الرابع (وحي الأربعين) نجد العقاد يقتفي أثر صديقه الشاعر العربي القديم ابن الرومي الذي كان من أكابر الهجائين وأجملهم تصويراً ، والذي

برع العقاد في تحليل نفسيته في دراسته التي كتبها عنه ، يقتغي العقاد أثره فيهجو سيدة قبيحة فيبدع في هجائها فهي في دمامتها كأنها خلاصة مركزة تجمعت فيها دمامة سبعين قرداً لا قرداً واحداً يقول العقاد :

مـــن رأى زهـــرة الجـــمال فهـــذي زهـــرة القـــبح أســـفرت تتحـــدى !
طلعـــة الشـــؤم مـــن رآهـــا يخلْهـــا خُلقـــتْ مـــن وجـــوه ســـبعين قـــردا

ويرثـي العقـاد - في الـديوان نفسـه - كلـب صـديقه الشـاعر الأديـب طـاهر الجبلاوي فيقول إن الفقيد الكريم - الكلب - يشبه صاحبه في أخلاقه وصفاته . بل ربما فاقه أحياناً حين يصيب العيُّ طاهراً وينبح كلبه في لباقة حاضرة :

حزنـــاً عـــلى كلـــب طـــاهرٍ فإنـــه طـــاهر الكـــلاب !
تشـــابها في خليقـــةٍ واتفقـــا - شـــيمة الصـــحاب
وربـــما عَـــيَّ طـــاهرٌ وكلبـــه حـــاضر الجـــواب
فلـــيس يوفيـــه حقـــه مـــن اكتئـــاب أو انتحـــاب
إلا إذا بـــات نابحـــاً نـــبح المســـاعير في الخـــراب
عوْعـــوْ ، عَـــوَوْوَوْ، بـــلا وَنَـــى ولا انقطـــاع ولا اقتضـــاب

ويهيب العقاد بالباكين على الكلب ألا يطلبوا له الرحمة ، فإن الله تعالى قد رحمه حين أرسل إليه الموت لينقذه مما أصابه من جوع عند صاحبه طاهر الجبلاوي ويستخدم العقاد تورية لطيفة وتضميناً شعبياً محكماً حين يقول (من جاع فليرض

بالتراب) وهي كناية عن الرضا بالقليل واستخدمت هنا تورية لأن الكلب لما دفن بالتراب فكأنه رضيه بديلاً عن الجوع الذي فر منه . يقول العقاد :

لا تسألوا رحمة له ... قد رحم الله واستجاب
لعله مات قانطاً ... من "أزمة" الأكل والشراب
منتحراً في شبابه ... وهكذا يفعل الشباب
أراحه الله من ضنىً ... أنقذه القبر من عذاب
فليحمد الله ربه ! ... من جاع فليرضَ بالتراب

وينتقل طاهر الجبلاوي إلى محافظة سوهاج في الصعيد فيرسل إليه العقاد الأبيات التالية يدعوه فيها للحضور لقضاء أحد الأعياد في القاهرة . وهي في ديوانه (ما بعد البعد) الذي أصدره المرحوم الأستاذ عامر العقاد ابن شقيق العقاد بعد وفاة عمه . يقول العقاد :

في العيد منتظروكا ... فاحضر لنا يا ويكا
سوهاج أضيق من أن ... تغنيك أو تحتويكا
فالعيش فيها ضنين ... بكل ما يرضيكا
ولو أردت انتحاراً ... لما وجدت (فِنِيكَا)

[والفنيك هو نوع من الكيمياويات السامة]

ويكاد العقاد في قصيدته هذه أن ينتهج نهج الشعر الحلمنتيشي الذي يزاوج في بنائه الفني - بين الكلمات الدارجة والكلمات الفصحى ، فهو ينجت الفعل

(يقيقهر) للدلالة على من يسكن القاهرة مقابل الفعل (يسوهج) للدلالة على من يسكن سوهاج . ويستخدم كلمتي (جهركا ، وسيكا) وهما مقامان موسيقيان مختلفان كما تختلف سوهاج عن القاهرة :

ومـــــن يقيهـــــر خـــــير ممـــــن يســـــوهج ديكـــــا
هـــــذا يغنـــــي جهركـــــا وذاك ينشـــــد ســـــيكا
وذا يصـــــيح فصـــــيحاً وذاك يهـــــذي ركيكـــــا
وجـــــائز حـــــين تـــــأتي ألا تعـــــود وشـــــيكا
تظـــــل في مصـــــر نســـــياً كـــــما هنـــــاك نســـــوكا

وذات مرة كان طاهر الجبلاوي في الفيوم ، فامتدت يد أحد اللصوص فسرق حافظة نقوده ولم يترك له شيئاً ، فاستنجد بصديقه العقاد ليرسل له نقوداً . فأرسل له العقاد " شيكاً " ومعه الأبيات التالية يتهمه فيها بانه ظلم اللصوص حين ادعى أنهم سرقوه ويصفه بأنه (خيتعور) وهي كلمة عامية لا معنى لها وإن حملت سمة التهكم فيقول :

تتجنى على اللصوص من الظلم فيـــا ليـــتهم تجنَّـــوا عليكـــا
إن يكـــن ضـــاع مـــا ضـــاع فـــاعلم أن كفيـــك غالتـــا كفيكـــا
بـــين كـــأس شـــهية وكتـــاب عبقـــري تجلـــو بـــه عينيكـــا
فتقبـــل شـــيكاتنا ، ثـــم حـــاذر أن تـــزوغ الشـــيكات مـــن كفيكـــا
ثـــم هـــرول يـــا خيتعـــور مـــن الفيـــوم جريـــاً ولـــو عـــلى قـــدميكا

ويبدو أن حظ طاهر الجبلاوي مع الصعيد كان سئاً للغاية فبعد أن سرقوه في الفيوم ، وبعد أن نقلوه إلى سوهاج ، نقلوه إلى أسيوط فأرسل أبياتاً لصديقه العقاد يستعيث به ليتوسط له في النقل إلى القاهرة ، ويصف له أهل أسيوط بأنهم آية في سوء العشرة فيقول الجبلاوي :

هل أنصفوا الجبلاوي ... وهو بأسيوط ثاوي ؟
أعيش بين أناس ... هم آية في المساوي
مُصبَّحاً ومُمَسَّي ... منهم بذئب عاوي
واللؤم والشر فيهم ... أضعاف ما قال راوي
أنجد أخاك فإني ... على شفير هاوي

ويرد عليه العقاد قائلاً إنه كلم له قوماً في شأن نقله منهم الأستاذ محمود رشيد ويبدو أنه كان صاحب مركز في الوزارة . فلم يفعلوا شيئاً . فعليه أن يصبر إذاً على ما هو فيه [وإذاً هذه تساوي في لهجة القاهرة كلمة : بقى - بفتح القاف - التي استخدمها العقاد هكذا وهم ينطقونها بأه] يقول العقاد :

كلمت في النقل قوماً ... منهم رشيد وغاوي
ومنهم مستقيم ... فيما يقول ولاوي
فما أفادوا بشيء ... إلا عريض الدعاوي
فاقعد بقا واصطليها ... في الحر والحر شاوي

وهكذا أظهرت النماذج السابقة - وما هي إلا أمثلة - كم كان العقاد يتمتع بروح مرحة أضفت على أشعاره ، ومن قبلها أضفت على علاقاته الاجتماعية جواً من الحب والود ، ولعل في تلك النماذج خير دليل على شاعرية العقاد من جهة وتقديره للفكاهة من جهة ثانية .